التطـــــــــــرف العقائـــــــــدي و الارهــــــــــاب... مدخـــــــل منظـــــــور نفســـــــي

أ.د. قاســــم حسيـــــــن صالـــــح – علـــم النفـــس – العـــراق
qassimsalihy@yahoo.com

إشكالـيـة مصطلح: شاع بين الناس مصطلح ((إرهاب)) ليعني الأعمال التي تستهدف قتل المدنيين أو إلحاق الأذى بهم . والواقع أن مفردة أو مصطلح (إرهاب) ترجمة غير موفقة لمفردة (**Terror**) الإنجليزية . ذلك أن جذر مفردة (ارهاب) هو (رهب) بفتح الراء والباء وكسر الهاء،ويعني (خاف) . ويقال في الأمثال : (رهبوت خير من رحموت). أي لأن ترهب، بضم التاء وفتح الهاء، خير من أن ترحم، بضم التاء وفتح الحاء . و (أرهبه) و (استرهبه) تعني أخافه . وبهذا المعنى ترد في القرآن الكريم في سورة الأنفال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين لا تعلمونهم الله يعلمهم – من الآية رقم – 60) .

وعلى وفق ذلك فأن مفردة (ارهاب) تحمل دلالة أو معنى إيجابيا . فالتفسير النفسي لها يعني أن الذي يهمّ بالعدوان على جماعة معينة يحجم عن تنفيذ عدوانه اذا رأى ما عليه الطرف المقابل من قوة، فيخاف على نفسه وجماعته خشية أن يلحق بهم الدمار أو الأذى، وكأنه (تكنيك) أو أسلوب للوقاية من شرّ محتمل .

هذا يعني أن الارهاب، لغة، يقصد به (إخافة) الطرف الآخر في النزاع أو الصراع، ولا يعني فعل إيقاع الأذى به . بمعنى آخر أن الارهاب أقرب إلى (الانذار) الذي يسبق الفعل ليحذر الخصم من أنه اذا شن عدوانا فأن ما سيصيبه من آذى ودمار أكثر مما يوقعه هو في الطرف الآخر . وواضح أن هذا لا ينطبق على ما جرى ويجري في العراق من الأعمال التي وصفت بالإرهاب . ونرى أن الأقرب لوصفها، لغة، هو مفردة ((إرعاب))، من الرعب الذي يتضمن أيضا ترويع الناس وإشاعة الذعر بينهم .

لكن اللغة العربية متخمة بالأخطاء الشائعة . ويبدو أن الخطأ الشائع أسهل في التخاطب بين الناس – لكثرة تداوله – من المفردة الصحيحة لغة . وعليه قد يصعب تداول(إرعاب) بدلا من (ارهاب)، لا سيما بعد أن اكتسب مصطلح إرهاب معنى جديدا هو : إيقاع الأذى بآخر أو آخرين ليسوا طرفا في النزاع . ومع ذلك فأن (الإرعاب) أصح لغة من (الإرهاب) في وصف الحالة موضوع البحث .

1– أراء من دون تفاصيل.. للتأمّل

* لا يولد الإنسان إرهابيا بالفطرة، إنما تصنعه مؤسساته الاجتماعية . وإذا ظهر من بيننا إرهابي فهذا يعني أننا نحن الذين صنعناه . أو – بعبارة أخف – ساهمنا في صنعه .

إن الارهاب ليس وليد القرن العشرين، بل هو سلوك قديم رافق البشرية عبر تاريخها الطويل بمسميات متنوعة : القراصنة، الصعاليك، .... العيّارون، الشطّار (لاسيما في بغداد أيام الفتنة بين الأمين والمأمون) . وأن الارهاب لم يظهر فقط في أرض العرب والإسلام، إنما في أوربا أيضا، ومنها – في سبيل المثال – فرنسا بين عامي 1789 و 1799.

إن القاسم المشترك لظهور الارهاب بمسمياته المختلفة عبر تاريخ البشرية، يتحدد بانقسام الناس الى فريقين : معدمون وفقراء وجياع وعاطلون ومهمشون يشكلون الأكثرية، وزعماء وحكّام وأغنياء ومترفون يشكلون الأقلية .. في نظام يفتقر إلى العدالة والإنصاف . يضاف لها عامل حديث معاصر هو : غطرسة واستعلاء دول كبرى في العالم، وسعيها الى فرض قيمها وتسفيه قيم الآخر.

إن الإسلاميين وجدوا أنفسهم محاصرين بثلاثة أنواع من الأطواق الخانقة : حصار خارجي يتمثل بدول الغرب الكبرى، وحصار داخلي يتمثل بالأنظمة السياسية، وحصار الحركات والتيارات اليسارية والعلمانية . وأن نزعة الإنسان الى البقاء تدفعه الى فك الحصار عن نفسه بأية وسيلة كانت

- يشكّل الإسلام مشروع حضارة وتحديا ثقافيا لحضارة الغرب وثقافته،مما دفعه(الغرب) الى التفتيش عما هو سلبي في الإسلام وتضخيمه بأساليب شكّلت استفزازا للإسلاميين الأصوليين، أو إساءة لمقدساتهم .

- إن الإسلاميين الذين اعتمدوا العنف وسيلة لتحقيق أهدافهم، استعانوا أو التحق بهم أفراد محترفون للجريمة، وآخرون منحرفون نفسيا، يجمعهم (الأصناف الثلاثة) فعل الجريمة "قتل الأبرياء" وان اختلفت أهدافهم .

- إن اعتماد أمريكا لنظرية (السيفون) في العراق، أي ترك حدود العراق مفتوحه ليتجمع فيه أعداؤها، ثم الإجهاز عليهم، كان أحد الأسباب الرئيسة في شيوع الارهاب في العراق، فضلا على غطرستها وسوء تعاملها مع العراقيين واسترخاص حياتهم .

- إن الإرهاب لا يمارسه فقط من يوصف بالإسلاميين الأصوليين أو التكفيريين أو أية جماعات بعناوين أخرى، إنما الحكومات أيضا، وبأسلوب أشمل وأبشع . وأبرز مثال معاصر عمليات الأنفال في العراق .ولا توجد الآن ضمانات تجعلنا نطمئن بيقين ثابت أن الحكومات العراقية المقبلة سوف لن ترتكب أعمالا إرهابية .

- إن الانتحاريين من الإرهابيين مخلصون تماما لمعتقداتهم . فلا يوجد اكثر إخلاصا للمعتقد من أن يضحي الفرد بحياته من أجله . ولا فرق – من حيث الفعل النفسي والادراكي – بين (عمر المختار) مثلا، وبين إرهابي يشد نفسه بحزام ناسف ليفجرها بين حشد من الناس، فكلاهما ينتهيان الى نهاية واحدة : تدمير الذات وإفناؤها. والفرق يكمن في نوعية المعتقد . فالسياسي الذي يخيّر بين الإعدام وبين التخلي عن معتقده.. ويختار الإعدام، إنما يضحي بنفسه من اجل هدف واقعي يراه يحمل الخير للناس، ولا يلحق مشهد إعدامه أذى بالآخرين إنما التعاطف معه، فيما يؤدي تدمير الارهابي الانتحاري لذاته الى ارتكاب جريمة بقتل نفوس بريئة، والحاق الأذى بآخرين، من اجل هدف خيالي نسجه معتقد يراه الآخرون وهميا أو باطلا . وعليه فأن الخلل ليس في الإنسان بحدّ ذاته، إنما في طبيعة معتقده .

والسؤال الذي يشكل تحديا لنا هو :

كيف تشكّل هذا المعتقد لدى أفراد في مجتمعاتنا الى الدرجة التي لا يفني الفرد فيها وجوده فقط، إنما يفني معه أرواحا بريئة من أبناء قومه يستهدفهم عن قصد، ولا يعدّ فعله هذا جريمة، بالرغم من أنه يعلم بأن من قتل نفسا بريئة كأنما قتل الناس أجمعين ؟!

2- المؤسســـــات

نرى ، نحن السيكولوجيين ، أن شخصية الإنسان (تفكيره وسلوكه) يسهم في تكوينها ثلاث "مؤسسات " هي : الأسرة والمدرسة والسلطة . وفيما يلي توصيف موجــز لــدور هــذه المصادر في تشكيل شخصية المواطن العربي .

1.2 الأســــــــــرة

يولد الطفل العربي في حضن وبيت يشكّلان لديه توجها نحو التفكير الخرافي وشخصية فيها اختلالات سلوكية .إذ يخلص من يستعرض الدراسات النفسية والاجتماعية الى نتائج " مخيفة " في مقدمها أن الأسرة العربية متهمة في أن أساليب تنشئتها للطفل العربي تقوم على : العقاب الجسدي والترهيب والتهديد والقمع السلطوي ، وأنها تركّز على مبدأ الحماية والطاعة والخوف من الأخطار ،على وفق رأي الباحث بركات. فيما يرى الباحث مصطفى حجازي أن الطفل العربي يعيش في عالم من العنف المفروض في داخل الأسرة ، الذي يجسّد اعتباطية السلطة الأبوية . ويدعم رأيهما باحثان بقولهما :إن الأسرة العربية تعاني من السلطة الأبوية الصارمة ،تتمثل في قهر الأبناء ووأد حرية الرأي .

وترى باحثتان من قطر عربي آخر أن الهدف الرئيس للتنشئة الاجتماعية في المجتمعات العربية يتمثل في : خلق الذات التواصلية التي يؤدي تحقيقها الى تعزيز علاقات السلطة الأبوية .

ويخلص الباحث وطفة الى أن الآباء في إطار الأسر العربية المتسلطة يستخدمون القمع النفسي بالازدراء والاحتقار والسخرية والتهكم وتوجيه الألفاظ النابية ، وكذلك القمع الجسدي بالضرب والحرمان والسجن والمنع . وفي المعنى نفسه توصل الباحث شرابي الى أن التنشئة العربية تنمّي أساليب التخجيل والتهكم والتبخيس وخلق الإحساس بالدونية والنقص . فيما يرى الباحث علي زيعور أن الأم العربية تلجأ الى التخويف بالأب والحيوانات والجن والعفاريت كي ينام الطفل أو يطيع أو يهدأ . ومن ثم ينتقل التخويف الى التهديد بالضرب ...وأن العصا والحيوان والشيطان أدوات قمع للطفل ومثيرات للرعب تؤدي في النهاية الى قتل روح النقد والإبداع واغتيال روح الحرية في نفوس الناشئة .

وفي بحث عن تأثير وسائل تربية الطفل في العائلة البرجوازية الحضرية ، يرى الباحث شرابي أن الأب يضطهد الصبي فيما تسحق الأم شخصيته عن طريق الإفراط في حمايته . أما البنت فتدفعها العائلة منذ طفولتها المبكرة الى الشعور بأنها عبء وغير مرغوب فيها . وان هذا الإفراط في الحماية وهذه السلطوية في العقاب يؤديان الى شعور الأبناء بالعجز والاتكالية والتهرّب من المسؤولية . وأن نظام العائلة عندنا – على ما فيه من حسنات كاحترام الكبار وحماية أفراد العائلة بعضهم بعضا في الملمات – يقوم على التنابذ والخلاف أكثر مما يقوم على التعاون والوئام . وأن الغيرة والحسد يسودان علاقات أفراد العائلة أكثر مما تسودها المحبّة والتسامح . وأن أولادنا يتعلمون منذ الصغر كيف يجري اغتياب الأصدقاء والأقرباء ، ومن أين تؤكل الكتف . وأنهم في تنافسهم على محبة الأم وعطفها يتعلمون بشكل تلقائي كراهية الأشقاء وعدّهم منافسين يجب التحسّب لهم .

وأفادت دراسة الدمرداش التي أجراها في مصر بأن الأمهات المصريات يعتمدن الأسلوب التقليدي القديم في تربية الأطفال المتمثل بأسلوب الشدّة ..وأن الأم المصرية تنظر الى حرية الطفل في التعبير والمناقشة بوصفها جرأة شديدة لا يسمحن بها . وأفادت دراسة أجرتها جامعة الإسكندرية بأن أحد الأركان الأساسية للتنشئة الاجتماعية يتمحور في مبدأ تطبيع الطفل العربي مع الأوضاع والخضوع للكبار ، سواء أكان ذلك عن طريق التسلط أم طريق الرعاية الزائدة .

وهنالك من يذهب ابعد فيعزو ليس فقط اخفاقات الفرد العربي في أمور شخصية من قبيل الاعتقاد بالخرافة والتفكير السلفي ،بل حتى النكسات الكبيرة التي أصابت الأمة العربية، وتحديدا نكسة الخامس من حزيران عام 67 ، يعزوها الى أساليب تنشئة ورعاية الأسرة العربية لأطفالها ، على ما يرى الباحث شرابي .

ويخلص الباحثون محمد عماد إسماعيل ورشدي فام منصور ونجيب اسكندر في مصر ، وقاسم عزّاق وحسناء الحمزاوي في تونس الى أن أساليب التنشئة الأسرية العربية تسعى الى أن تخلق الطاعة والأدب عند الطفل عن طريق العقاب البدني ، ثم خلق المخاوف لديه عن طريق كائنات خرافية . فيما توصل كاتب هذا الموضوع في دراسته لأساليب تنشئة الأمهات في بغداد وقرية عراقية قريبة من مدينة الفلوجة الى شيوع معتقدات خاطئة وخرافية عندهن ، من بينها مثلا :

- ذبح خروف أو عجل قجران دم يؤدي الى طرد الشر .
- وضع السكين التي يقطع بها الحبل السّري تحت فراش الطفل لمدة أربعين يوما ، تحمي الطفل وأمه من الشر والحسد .
- تعليق خضرمة أو شذرة ، أو قطعة من الذهب على شكل هلال بشعر رأس الطفل ، تقيه من عين الحسود وتساقط الشعر .
- رمي الحبل السّري في حوش الحلال يجعل الطفل مستقبلا ميسور الحال ، ورميه في ساحة المدرسة يجعله يتولع بالدراسة .

تعـــليـــق

إن الأسرة العربية بوصفها الحاضنة الأولى للعقل العربي ، تعيش اختزالات واستلابات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية

ونفسية ، تضطرها اللجوء الى العرّافين والسحرة والدجالين والمسيئين لاستخدام الدين ، للتخفيف من حالتها المأزقية .

ومع أن الأم العربية تغذّي أطفالها حليبا طيبا من صدرها ..مدفئا بحنانها ، إلا أنها تغذّي عقولهم بأفكار خرافية يصعب عليهم التخلص منها حتى لو صاروا راشدين .

2.2. المدرســـــة

تشير الدراسات الى أن النظم المدرسية العربية تسعى الى الضبط الاجتماعي، بدلا من تكريس الحرية المترتبة على المعرفة ، والى توليد المسايرة والانصياع لمعايير الجماعة للمحافظة على ما هو قائم . وأن الأنظمة التربوية العربية الرسمية تقوم على تكريس علاقات السلطة الخاصة بالنظام الأبوي ، وتعمل على إعادة إنتاج هذه العلاقات . وأن ما يتعرض له الأطفال من قهر وتسلط تربوي يضعهم في دائرة استلاب شاملة تكرّس مظاهر القصور والسلبية كافة في الشخصية الإنسانية ، على ما يرى الباحثان وطفه والنقيب . فيما يذهب باحثان آخران " علي والراهب " الى أبعد من ذلك فيصفان نظام التعليم العربي بأنه تقليدي يقوم على سجن عقل التلميذ في حذاء صيني ضيق يمنعه من الانطلاق والانتشار والشمول . وبمعنى مقارب يرى الباحث (الناقة) أن شيوع التلقين لا يقتصر على ساحة التعليم المدرسي بل يتعداها الى مؤسسات التعليم العالي ، وأن الجامعات العربية ظلت أسيرة لطرائق التدريس التي ألفها الطالب سابقا ، وليس من الميسور تغيرها بما يتناسب مع الدراسة الجامعية القائمة على البحث والمراجع وما يتطلبه من مهارات .

تعليـق

تعدّ المدرسة من أهم وأخطر مصادر بناء شخصية الإنسان ، لكونها تغذّي العقل بالعلم والمعرفة ، وتهذّب السلوك . ولأن الفرد يقضي فيها خمسة عشر عاما أو اكثر من أهم مراحل حياته " الطفولة والمراهقة والشباب " . ولأنها أداة الدولة والمجتمع في التطور والحضارة . فضلا على أنها القناة التي يتم من خلالها تشكيل أو تكوين العقل العربي .

ولم تعد المهمة الأساسية للتربية تعليم المعارف والمعلومات والحقائق ، فهذه يمكن أن يجدها الإنسان في المكتبات وفي وسائل الاتصال وآخرها الإنترنت . إنما المهمة الرئيسة لها هي تمكين الفرد من تغيير حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والبيئية نحو الأفضل .

وبما أن الفكر ، كأداة ومحتوى ، ما يزال مرهونا بتقدم العلم " الذي يفضي استخدامه الى أن يجعل الحياة بصيغة أفضل " فان المدرسة ، بوصفها قناة العلم ، لا يكون بمستطاعها تحقيق ذلك ما لم يكن ثالوثها " المعلم – الطالب – المنهج " بمستوى هذه المهمة المعقدة والخطيرة . ويبدو أن مؤسساتنا التربوية العربية ما تزال غير مؤهلة تماما لإنجاز هذه المهمة بالسرعة والكفاية التي تمتاز بهما المؤسسات التربوية في العالم المتقدم .

3.2. السلطـــــــــة

تتعدد إشكاليات العلاقة بين السلطة والفرد في المجتمع العربي في حالة من التشابك المعقد . سنلتقط إشكاليتين فقط هما : الاغتراب عن السلطة ، وتعدد الرؤى وضبابية المستقبل ، ونوجز الحديث عنهما بلغة البرقيات .

ففيما يخص **الاغتراب عن السلطة** ، فالدراسات تشير الى أن المجتمع العربي واقع مغرّب يحيل الشعب ، وبخاصة طبقاته وفئاته المحرومة والمرأة ، الى كائنات عاجزة لا تقوى على مواجهة تحديات العصر . وأن السلطة حاصرت الإنسان العربي فاضطرته للاشتغال بتدبير شؤونه الخاصة وتحسين أوضاعه المعيشية ، وأنها عمدت الى تهميشه وإفقاره وسحق قدراته الابداعية ، على ما يرى الباحث بركات .

ويرى الباحثون : وطفة ، النقيب ، شرابي ، رضا ، وغيرهم أن الأوضاع العربية أحالت الإنسان العربي الى كائن مغترب عن نفسه ومجتمعه ومؤسساته ، واضطرته لأن يساوم ويتكيف مع واقعه الأليم بدلا من تغييره . وأن السلطة العربية حولت الفرد العربي الى كائن يعمل في خدمتها دون أن تعمل لصالحه وتحسين أوضاعه المادية والإنسانية واغناء حياته ، وأنها جعلته عاجزا وفقيرا ومهمّشا لا يقوى على الإسهام في خدمة مجتمعه.

وما يهمنا هنا هو التنبيه الى الآثار النفسية الناجمة عن الاغتراب ، ومن أخطرها : شعور الفرد المغترب بالعجز " powerlessness "، وإحساسه بأنه لا يمتلك السيطرة على مصيره ، الأمر الذي يدفعه الى أن يكون قدريا وميالا الى التفكير الخرافي . فضلا على فقدانه المعنى أو الهدف من الحياة ، والبعد عن القيم الأساسية في المجتمع ، وشعوره بالعزلة والوحدة الذي قد يصل الى الإحساس بالنبذ.

وفيما يتعلق **باستشراف العربي لمستقبله** فان الدراسات تشير الى تعدد رؤى السلطات الفلسفية والسياسية والفكرية والاقتصادية ...بشكل وضعت الفرد العربي في منطقة رمادية وحاصرته فيها .

ففي المجال الفلسفي ، مثلا" ، هنالك تيار سلفي قوي يدعو الى استعادة الذات العربية من ماضيها المجيد وتوكيد نفسها في مواجهة التحدي الحضاري، مقابل رؤية تدعو الى الحداثة و " العصرنة ". وكل يأتي بحجج ساندة لموقفه وداحضة الموقف الأخر ، حتى لتبدو الحجج الساندة والداحضة معقولة ومقبولة، برغم ما بينها من تناقضات. فالرجوع الى الماضي نكوص في عالم اليوم، والحداثة أو " العصرنة " تعني العولمة وضياع الهوية . ومن يدعو الى المعقولية والتوازن بينهما، كما يفعل الدكتور محمد عابد الجابري، تبدو له الرؤية منطقية على صعيد ما ينبغي أن يكون، وخيالية أو مستحيلة على صعيد ما هو كائن.

وقد ينتهي الأمر الى ما توصل إليه بركات من أن الفرد العربي صار في معظم المجتمعات العربية موزعا" بين القديم والحديث من دون أن يكون أيا" منهما حقا"، وأن النزوع الى كل من السلفية وتقليد الغرب يشكل نوعا" من الاغتراب عن الذات.

ومحنة نفسية أخرى يعيشها الفرد العربي هي انه يملك تاريخا" مجيدا"، ويحمل في الوقت نفسه صورة سلبية عن ذاته. وبين هاتين الصورتين (الحالين) يعيش حالة مأزقية. فتاريخه يحدّثه بالأمجاد والزهو، فيما حاضره يصفعه بالانكسارات وبما يحاول أن يذلّه.

وما يزيد من هذه المحنة، أن بعض السلطات في المجتمع العربي تعمّق إحساس الفرد العربي بمشاعر الإحباط وتمارس آلية (الإسقاط)، بأن تتنصل عن مسئوليتها وترميها على قوى خارجية.

إن تعدد الرؤى حالة إيجابية ومطلوبة في تغيير الحاضر الى ما هو أفضل. غير إن الإشكالية هي انك اذا أحصيت الرؤى في مجتمعاتنا، (

وهي عسيرة على أن يجمعهما جامع)، فانك ستصل، من بين استنتاجاتك، الى أن الفرد العربي يصاب بالدوار منها. وانه اذا انشغل بها فانه قد يتعرض بسببها الى اضطراب عقلي. ولأنه لا يريد هذا ولا ذاك، فانه يلجأ الى أن ينأى بنفسه عنها في حالة يأس منها ومن المستقبل. يرافق ذلك أن أجهزة الإعلام العربي أوصلت الفرد العربي الى حالة من (التقيؤ الفكري) لكثرة ترددها لما يزيد عن خمسين سنة مقولة " إن الأمة العربية تمر الآن بأزمة خطيرة " ، برغم تعاقب الأزمنة وتنوع السلطات، وكأنها مبرمجة لتيئيس الفرد العربي من أمته ومستقبلها، لأن التكرار وعلى مدى هذا الزمن الطويل، كفيل بأن يولد، سيكولوجيا"، حالة الإقناع بأن " الآن " هذه مزمنة ولا خلاص للأمة منها.

تعليـــــــق

عندما تكون السلطة عاجزة عن ، أو غير جادّة في تقديم حلول أو معالجات عملية للمشكلات الحياتية والحاجات المشروعة للإنسان . وعندما تشيع الخرافة في أجواء من التخلف والحرمان . وعندما تتضاءل أو تنعدم فرص الخلاص أمام الإنسان ويتنامى لديه الشعور بالعجز ..فانه يلجأ الى الوسائل الخرافية في محاولة منه لالتماس حلّ أو أمل يفضي الى خفض القلق لديه والشعور بالطمأنينة ، لاسيما بين البسطاء ومحدودي الثقافة الذين يدفعهم إيمانهم بالدين الى اللجوء الى المعالجين الروحانيين ، حتى في أمراضهم العقلية .

ويشير واقع الحال الى ازدهار وسائل الإرشاد الروحانية والخرافية لاسيما عبر القنوات الفضائية . وأن السلطة قد يكون لها دور في تبني هذه القنوات لهذا الغرض أو ذاك .

3. تفاصيـــــــل ..ليســـــت بحجـــــم الظاهـــــــــرة

إن مقارنة السيكولوجيين، للارهاب تبدو للسياسيين كمن يغرد خارج السرب . وبصريح العبارة فأنهم لا يعيرون لكلامهم اهتماما . والسبب هو أن السياسيين يختزلون الارهاب بمسألة واحدة هي ((**الأهداف**)) التي يسعى الارهاب الى تحقيقها . ويركزون في إبراز شرعية النظام السياسي القائم وإنسانيته وأخلاقياته، وإظهار قبح الإرهاب ووحشيته وما سيحلّ بالناس من بلاء اذا ما أزاحهم عن السلطة وأخذها منهم . فيما يركز – النفسانيون – في ((**الأسباب**)) التي أدت الى ظهوره والعوامل التي جعلت منه أن يكون بحجم ظاهرة دولية ذات أبعاد وعناوين متعددة : سياسية ودينية واجتماعية ونفسية وأخلاقية واقتصادية . وفي رأينا، إن الذي يقف على أسباب أية ظاهرة يمكنه اقتراح سبل أو أساليب لعلاجها...وهذا ما تهدف أليه هذه الورقة .

إننا، نحن المعنيين بالعلوم النفسية والسلوكية، ننظر إلى انه توجد في داخل أي إنسان " منظومة قيم" هي التي تحرك سلوك الفرد وتوجهه نحو أهداف محددة، تماما مثلما يفعل " الداينمو " بالسيارة . فكما انك ترى السيارة تتحرك (وحركتها سلوك) ولا ترى الذي حركها " الداينمو" كذلك فأنت لا ترى " المنظومة القيمية" التي تحرك سلوك الفرد . ولذلك فان اختلاف الناس : (رجل الدين عن رجل السياسة عن الفنان عن المنحرف عن الإرهابي .....) إنما يعود إلى أن شبكة المنظومة القيمية والثقافية الناجمة عنها، تكون مختلفة لديهم نوعيا وكميا وتراتبيا وتفاعليا .

ونرى أيضا أن الإنسان لا يولد مزودا" بالفطرة بهذه المنظومة القيمية إنما يكتسبها من خلال ثلاثة مصادر أساسية هي : 1- الأسرة و النظام التربوي (المدرسة) و السلطة (نظام الحكم) .

والمتفحص للمنظومات القيمية (محركات السلوك ومحددات أهدافه) لدى الإرهابيين العرب، يخرج بنتيجة أنها نتاج هذه المصادر المحلية الثلاثة، مضاف لها "**الجامع**" بوصفه مصدرا للتثقيف الديني، ومصدر آخر خارجي استفزازي عدواني تحريضي قادح لزناد الإرهاب هو "**أمريكا**" . فضلا على محاولة الإعلام الغربي تصوير الإسلام بأنه كان قد أشاع ثقافة انتشاره بالسيف وليس بالحوار، وأن المنادين به الآن ملتزمون بهذا النهج، وغيرها من التهم . غير أن ما يعنينا هنا هو ما **صنعته أيدينا** .

فالدراسات النفسية الاجتماعية تشير الى أن "الأسرة العربية" لا سيما في الأوساط الفقيرة والمتوسطة والمتدنية ثقافيا، وهي الأوسع في أمة الإسلام والعرب، تنشئ أطفالها على العقاب الجسدي والترهيب والتهديد والقهر النفسي والازدراء والتحقير والتخجيل والسخرية والتهكم وخلق الإحساس بالدونية الذي يفضي إلى عقدة الشعور بالنقص ووأد حرية الرأي . فضلا عن أن البعد السلطوي في الثقافة العربية يبدأ مع الأطفال وهم في المهد . فالأم تمارس أسلوب تخويف الأطفال بالأب والحيوانات و الجن كي يناموا ويطيعوا . فالعصا والحيوان والشيطان أدوات تستخدم لقمع الأطفال، ومثيرات للرعب تفضي الى اغتيال أو خنق روح الحرية في نفوس الناشئة وتغلق نوافذ تفكيرهم في السؤال والحوار.

ونميل نحن النفسيين إلى الاعتقاد بأن المنحرفين والمجرمين و المتمردين على النظام والقانون يأتون من بين هؤلاء الأطفال الذين عاشوا هذه الخبرات . فالذي أحتقر في صغره وكان موضوعا للسخرية والقمع النفسي والفكري... وكان ممسوخ الهوية "أعني قمع صوت الأنا" يتشكل لديه أسلوب عصابي في التعامل مع الآخرين يدفعه من بدايات شبابه إلى أن يعمل على "ردّ اعتباره" لنفسه واعلاء صوت "الأنا" من خلال النيل ممن يتخذه ضحية من هؤلاء الآخرين بإذلاله والاعتداء عليه . وبتكرار الضحايا يجري تضخيم "الأنا" وصولا لأن يكون بحجم صورة "البطل" في ذهن صاحبه، التي تكون عند العصابي بلا حدود .

والإرهابي ـــــ في اجتهادنا ـــــ عصابي، بمعنى أنه يفقد المرونة في التعامل مع الأمور ولا يجد إلا حلا واحدا لكل قضية يسيطر عليه ويكون هذا الحل قسريا، بمعنى يجبره على أن يقوم به، ويجعله حرونا عنيدا حتى لو كان فيه فناؤه .

ويعد النظام التربوي بمؤسساته التعليمية من الابتدائية إلى الجامعة القناة الأكثر تأثيرا في تشكيل القيم لدى التلاميذ والطلبة، وأول من يحدد لهم الطريق الى ثقافة معينة . والباحث في الأنظمة التربوية العربية يجد أنها تقوم على تكريس علاقات السلطة الخاصة بالنظام الأبوي، وتسعى الى الضبط الاجتماعي بدلا من توظيف الحرية المترتبة عن المعرفة . فالتعليم عندنا يقوم على التلقين وحشو الذاكرة الذي ينتج بالضرورة عقلا يأخذ بالأمور كما لو كانت مسلمات دون أن يتحاور معها بفكر ناقد. فتلقين الطالب تفسيرا واحدا أو رأيا واحدا، وإجباره على تبنيه، واحدة من السمات السلطوية البارزة في مناهجنا التربوية التي نجم عنها أن الطالب (حتى الجامعي) تعود على الخضوع والعجز، وغلق كل نوافذ عقله إلا النافذة التي تضخ عليه المعلومات ليودعها في مخازن الذاكرة . وبهذا صاغ النظام التربوي العربي عقولا عودها على أن " تستقبل" لا على أن "تحاور" . وجعل من هذه العقول أشبه بحصان العربة، لا ترى إلا الذي أمامها في خط مستقيم، وإن استدارت فبتوجيه من سائسها . وللأسف فأن "السائس" لها من أصحاب الفتاوى المتشبع بثقافة الحقد ضد سلطة أو قوة يرى فيها أنها طاغية أو باغية وأنه لا سبيل الى إيقافها عند حدها إلا بالعنف . ولهذا السبب فأنه سهل على النفوس المحبطة والعقول التي لا ترى إلا حلاً واحدا لكل أزمة ، تلقي الفتاوى والعمل بها دون نقاش .

أما موضوع السلطة، فذلك هو مرض العرب المزمن منذ ما يزيد عن ألف وثلاثمائة سنة . فقد كانت ولا تزال أقرب إلى "التسلط" منها إلى "السلطة". ذلك أن السلطة في المفهومين الفلسفي والأخلاقي ضرورة اجتماعية (**لتنظيم أمور المجتمع**)، وضرورة نفسية (**لتحقيق العدالة بين الناس**)، فيما يتضمن مفهوم "التسلط" معاني الظلم، والقهر، والإكراه، والتشديد، والعنف، والإرهاب ... وهو الأقرب لواقع الحال في مجتمعاتنا العربية . فضلا عن أن السلطة لدينا تتفرد بالثروة والبذخ والترف السفيه . ومعروف أن المجتمع الذي يضع قيمة كبيرة على الأمور المادية، تتمتع فيها فقط جماعات قليلة في السلطة تأكل لحم الغزلان المطعّم برائحة الهيل فيما يأكل الفقراء خبز النخالة (كما حصل في العراق خلال سنوات الحصار)، فأنه تبرز في هذا المجتمع حالة الإحساس بانعدام العدالة الاجتماعية لدى الجماعات المحرومة منها، فيظهر بينهم من يعمد الى تجاوز قيم المجتمع ونظامه ليأخذ حقه بسيفه .

والمفارقة أن عامة العرب رسمت صورة عن السلطة العربية مشابهة لصورة أحمد عبد الجواد (سي السيد في ثلاثية نجيب محفوظ) الذي يحل لنفسه اللهو الحرام، ويحرّم على أهل بيته اللهو الحلال . فنشأت حالة من "اغتراب" الفرد العربي عن سلطته، نجم عنها فقدان المعنى أو الهدف من الحياة، فصار معظم الشباب العربي موزعا بين القديم والحديث، سواء نزع قسم منهم إلى السلفية، أو اتجه آخر إلى تقليد الغرب، فكلا الحالين يمثل الاغتراب عن السلطة والمجتمع والذات .

ومحنة نفسية ثقافية وقيمية أخرى يعيشها الشاب العربي، هي أنه يملك تاريخا مجيدا و يحمل في الوقت نفسه صورة سلبية عن ذاته . وبين هاتين الصورتين(الحالين) يعيش حالة مأزقية . فتاريخه يحدثه بالأمجاد فيما حاضره يصفعه بالانكساريات وبما يحاول أن يذله . وما يزيد من هذه المحنه أن السلطة في مجتمعاتنا العربية تعمق إحساس الفرد بمشاعر الإحباط، وتمارس آلية "الإسقاط " بأن تتنصل عن مسؤوليتها وترميها على قوى خارجية، فوضعته في حالة نفسية مأزقيه: أما أن يستكين لها و يقبل بالأمر الواقع بأي تخريج نفسي مخفف، واما أن يخاصمها ويبحث عن "سلطة" أخرى، يجد فيها ذاته...ولقد وجدها في "الجامع" و "أهل الفتوى".

فقد التقط بعض أئمة الجوامع من الذين أفتوا بقطع الرؤوس، من التاريخ الإسلامي وفقهه ما يشبع الحاجات النفسية لدى بعض الشباب العرب المتشبعين بثقافة الإحباط والانكسار النفسي، ويحرضّهم على " الجهاد" لتغيير واقع متخم فعلا بالظلم وتخلخل أو انعدام العدالة الاجتماعية وتحلل من قيم يرون فيها الأصالة والهوية،فاحتقنوا بما يثير لديهم غريزة العدوان وشرعية الانتقام . وأهملوا الضفة الأوسع من الدين التي تدعو إلى التسامح والحوار واصلاح الحال بالتي هي احسن، ومتى يكون الجهاد فرضا موجبا. وغيّبت قوى الإصلاح الديني وصارت مهمشة، فكانت فوضى الفتاوى التي انشغل بها الناس الآن بعد أن كانوا منشغلين بالفكر والثقافة والسياسة .

وللحقيقة فأن قطع رؤوس الخصوم وذبحهم ذبح الشاة، ليس جديدا في تاريخنا العربي و الإسلامي .فقد ذبح السلف ابن بنت نبيهم . وما كان الذابحون من عامة الناس . فالذين نحروا رأس الحسين كانوا أبناء صحابة، وجرى المشهد أمام أنظار صحابة أيضا . وطافوا بالرؤوس (الحسين وأصحابه) في أمصار العرب والإسلام .

وقتل معاوية عمر الخزاعي ورفع رأسه على رمح من الموصل حتى دمشق، ثم رموا رأسه في حجر زوجته الرهينة . ورمى هشام بن عبد الملك رأس الإمام زيد بن علي في حجر والدته . ورمي رأس مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في حجر ابنته . ورمى أبو جعفر المنصور رأس إبراهيم أخي النفس الزكية في حجر والده عبد الله بن الحسن . ورمي رأس المعتز بالله في حجر جاريته . ورمي رأس ابن الفرات في حجر والده الوزير قبل ضرب عنق الأخير ...والقائمة طويلة، فحكام العرب والإسلام كانوا يتفردون بحفظ رؤوس الخصوم بخزائن في مقرات إقامتهم !.

ولا يختلف التخريج الفقهي للذبح في ((دين السلطة)) و ((ثقافة العنف)) وفتاوى القائلين بـــ ((حلال الدم)) التي أشاعها السلف عن ذبح الخلف لشباب من الكورد والشيعة في الفلوجة، وذبح عميدة كلية الحقوق وزوجها في الموصل، ومئات مشاهد الذبح الأخرى، التي لا نملك إزاءها سوى موقف الحلاّج (الحسين بن منصور) حين جاءوا به الى منصة الإعدام، فصعد وضحك حتى دمعت عيناه . وشرّ البلية ...أن النابشين في موروثنا الفقهي عن ما يحرق الحاضر، يفتي به ليس فقط بعض من يضع العمامة على رأسه، بل وأكاديميون وقيادات أحزاب يدعون الى العدالة والفضيلة !.

خاتمـــــــــة

نكرر ما بدأنا به :

إن الارهابي لا يولد إرهابيا، إنما نحن الذين صنعناه : الأسرة والمدرسة والجامع والسلطة التي لم تقم العدل بين الناس .

إن مصادر بناء الشخصية (فكرا وسلوكا) المتمثلة بالأسرة والمدرسة " النظام التربوي " والسلطة " النظام السياسي والاجتماعي " ما تزال في العالم العربي دون دورها المطلوب في تكوين العقل العلمي لدى الفرد العربي في معالجة ما يتعرض له من مشكلات ومواجهة تحديات العصر .

- إن الواقع العربي مشحون بالضغوط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية ، وان الناس الفقراء ومحدودي الثقافة هم الأكثر عرضة لهذه الضغوط ، والأكثر عددا في هذا الواقع ، والأمس حاجة لمعالجتها علميا وعمليا .

- إن مرجعيات الإرشاد القائمة على الوسائل الخرافية في معالجة الأمراض العقلية والاضطرابات النفسية والمشكلات الأسرية والحياتية ، هي الأكثر رواجا وانتشارا في العالم العربي من المرجعيات العلمية في الإرشاد .

- إن المرجعيات العلمية في الإرشاد العربي تتطور ببطء ، ولا تحظى بالدعم المادي المطلوب من مؤسسات الدولة أو القطاع الخاص . وأنه من دون هذا فان مرجعيات الإرشاد القائمة على التفكير الخرافي ستتوسع وتنتشر أكثر بين الناس ، وتجعل دور المرجعيات العلمية في الإرشاد ضمن حدود الجامعات والمؤسسات العلمية . وأن الخاسر الوحيد في هذه العملية هو الإنسان العربي ، التي تفضي الى أن يبقى العالم العربي متخلفا لدهر قادم قد يطول .

وفي أدبنا العربي قول بليغ :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وفي الإنجيل أيضا مقولة بليغة :

" **إذا فسد الملح فبماذا نملّح ؟!** "